ولاية قرة بن شريك على مصر

فى ضوء أوراق البردى

فى مستهل القرن الحالى وقع حادث عرضى فى مصر ، ترك أعظم الآثار فى تطور الدراسات الخاصة بالتاريخ الإسلامى ، كما فتح أفاقا فسيحة مشرقة أمام الباحثين فى تلك الدراسات والعاملين فى حقولها . ففى سنة ١٩٠١ م كان بعض العمال يحفرون أساس منزل فى قرية كوم اشقاو الحـالية ، وتقع بين أبى تيج وطهطا ، وفجأة ظهرت أمامهم فجوة فى الأرض مليئة بأكداس من لفائف البردى ، ومغطاة بقطعة من الحصير .

وسرعان ما انتشر خبر هذا الـكنز من أوراق البردى بين أبناء قرية كوم اشقاو ، ووصل إلى مسامع كبار أهلها ، ومن بينهم أخى العمدة ، الذى كان على شىء من الثقافة والدراية أيضاً بقيمة هذا النوع من ورق البردى . إذ سبق لنفر من الفلاحين فى الجهات المجاورة للقرية أن عثروا فى أكوام السباخ ، التى قطعوها بفؤوسهم ونقلهـا إلى حقولهم ، على شذرات من أوراق البردى ، دون أن يحفلوا بأهميتها[1] . ولـكن تجار العاديات فى الصعيد أظهروا اهتماماً بتلك الأوراق ،

---

(١) عثر بعض الفلاحين سنة ١٨٢٤على جرة صغيرة مختومة بها ورقتان من أوراق البردى العربية فى مكان بالقرب من أهرام سقارة ، وقام بنشرها المستشرق سلفستر دى ساسى فى مجلة Journal des Savants الصـادرة بباريس سـنة ١٨٢٥ م . وبعد ذلك تنبه الناس إلى أمر أوراق البردى . وبعد مضى خمسين سنة تم بالفيوم اكتشاف كميـة كبيرة من أوراق البردى . ثم تلا ذلك أيضاً اكتشـاف أوراق بردى وجدها المنقبـون فى أكوام السباخ بين تلال أهناس وأخميم والأشمونين والبهنسا .

(أنظر أدولف جروهمان ، المحاضرة الأولى عن الأوراق البردية العربية (القاهرة ١٩٣٠) ص ٣ ، ٤ .

وعمدوا إلى الحصول عليها ، مما جعل الفلاحين ينظرون إلى ما يقع فى أيديهم من أوراق البردى بعين الجد والحرص . ولذا ما كاد ينتشر خبر كشف أوراق البردى فى كوم اشقاو ، حتى أسرع أخو العمدة إلى مكان هـذا الـكنز ، وأخذ منه نصيب الأسد ، على حين بادر أهل القرية جميعاً ، كباراً وصغاراً إلى اقتسام البقية الباقية من تلك الأوراق فيما بينهم (١) .

وعند ما سمع تجار العاديات والآثار فى طما والأقصر وأخميم وأسيوط بما حدث فى كوم اشقاو ، جاءوا إلى تلك القرية للاطلاع على محتويات هـذا الـكنز ، وشراء ما يروق لهم منه . وعرض أولئك التجار ثمناً بخساً فى أول الأمر ، لم يلبث أن ارتفع حتى بلغت قيمة ما دفع فى اللفافة الواحدة سبعة جنيهات . ولـكن أحد التجار فشل فى الحصول على نصيب من تلك الأوراق ، واشتد به الألم ، حتى أنه بادر إلى إخبار مفتش الآثار فى البلينا بما حدث فى كوم اشقاو . ونقل مفتش الآثار هذا النبأ بدوره إلى مأمور طما ، الذى أعد حملة تفتيشية ، انطلقت إلى كوم اشقاو لتحقق فى الموضوع . غير أن هـذا الحادث أدى إلى نتائج غير متوقعة ، إذ أمعن نفر من الفلاحين فى إخفاء ما لديهم من أوراق البردى ، على حين عمد فريق آخر إلى التخلص مما فى حوزتهم من البردى باشعال النار فيه ، ليتجنبوا مسئولية التحقيق والتردد على دار الشرطة . وأخيراً اكتفى رجال الشرطة بوضع حراسة على مكان اكتشاف أوراق البردى (٢) .

وبعد بضعة أسابيع من اكتشاف كنز كوم اشقاو ظهرت لدى أحد تجار الآثار والعاديات فى القاهرة مجموعة كبيرة مما احتواه هذا الـكنز من أوراق البردى ثم لم تلبث أن تسربت بدورها إلى أوربا حيث استقر القسم الأكبر منها فى مكتبة المتحف البريطانى ، وتقاسم البقية الباقية متحف برلين وموسكو وهيدلبرج ،

---

(١) Grohmann, A., From the World of Arabic Papyri (Cairo 1952), 216.

(٢) Grohmann, op cit, 217.

كما نالت دار الكتب المصرية شطراً من تلك الأوراق(١) . وفى العام التالى لهذا الكشف الهام بدأ العلماء فى أوربا ينشرون ما وقع فى أيديهم من هذا الكنز العلمى الثمين . ومن أشهر هؤلاء العلماء الأستاذ بيكر الذى نشر بعض أوراق البردى فى المجلات الألمانية ، والأستاذ بل الذى نشر المجموعة الموجودة فى المتحف البريطانى ، والأستاذ جروهمان الذى عكف على نشر أوراق البردى فى دار الكتب المصرية . ولم تكن مهمة أولئك العلماء سهلة ميسورة ، وإنما كانت صعبة وشاقة ذلك أن كثيراً من تلك الأوراق قد امتدت إليها يد البلى والتلف ، مما أضاع جوهر محتوياتها ، على حين أن القسم الداخلى من لفائف البردى متحجراً ، وتطلب فحصه عناية عظمى ، ودقة فائقة(٢) .

وأدى نشر أوراق البردى الخاصة بكوم اشقاو إلى كشف معلومات هامة تتعلق بتاريخ مصر فى القرن الأول الهجرى — السابع الميلادى . إذ كانت كل هذه الأوراق ترجع إلى عهد الوالى الأموى على مصر ، قرة بن شريك ، الذى عينه الخليفة الوليد بن عبد الملك على تلك البلاد سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩ م . وانقسمت تلك الأوراق قسمين ، الأول اشتمل على الخطابات أو المراسلات الرسمية التى دارت بين قرة بن شريك وحاكم كوم اشقاو إذ ذاك ، وكان يدعى « بسيل » من جهة وبين أهالى القرى التابعة لكوم اشقاو من جهة أخرى . أما القسم الثانى . فهو عبارة عن قوائم للخراج وسجلات تحوى أسماء نفر من أهل القرى وبيان

---

(١) I bid , 217, 218,

(٢) لم تكن أوراق البردى التى تم اكتشافها سليمة خالية من العيوب ولذا لم يكن نشرها سهلا ميسوراً . فالأجزاء النفيسة وجدت — كما قال الأستاذ جروهمان — « متلاصقة متماسكة إلى حد يقرب من تحجرها أو مطموسة بالتراب ، أو ملقاة فى ناحية أو هذا غير ما يصل إلينا ممزقاً كله أو بعضه من فعل رطوبة الأرض أو من فعل النيران ... والأدهى من ذلك حين يدفع الطمع التجار الذين اعتادوا شراء البردى أو أولئك الذين يجدون بعض أوراق بردية ، فيعمدون إلى فصل شذرات مختلفة إما تعمداً أو بدون علم وقصد سيىء » .

أنظر جروهمان ، المرجع السالف ، ص ٤ و ٥ .

بأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية . ثم اتضح من دراسة هذه الأوراق أيضاً أن بعضها كان مدوناً باللغتين اليونانية والقبطية ، والبعض الآخر مدون باللغة العربية .

ومن دراسة أوراق البردى السالفة الذكر ظهرت عدة نتائج هامة ، أولها أن صناعة ورق البردى فى مصر ظلت رائجة ومتقدمة فى القرن الأول الهجرى ، أى بعد دخول البلاد فى نطاق العروبة والإسلام . فاستمرت المصانع المصرية تؤدى رسالتها فى هذا الميدان الهام ، على نحو ما قامت به منذ أيام الدولة القديمة ، وزودت شتى جيرانها ، ولا سيما بلدان البحر المتوسط بهذا العنصر الهام من عناصر الكتابة و بناء الحضارة الإنسانية كذلك (١) .

أما النتيجة الثانية فهى أن أوراق البردى التى اكتشفت فى كوم اشقاو صححت كثيراً من المعلومات التى وردت فى كتابات المؤرخين المسلمين عن الإدارة العربية وعمالها فى مصر وغيرها من البلاد على عهد الدولة الأموية . ومن ذلك أن المراجع التاريخية صورت «قرة بن شريك» والى مصر على أنه مثال للقسوة والجور وسوء الإدارة . فترك المؤرخ ابن الأثير مثلا : إن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولاة الأمصار أيام الوليد ابن عبد الملك فقال : « الحجاج بالعراق ، والوليد بالشام ، وقرة بن شريك بمصر ! » .

---

(١) اشتهرت مصر بنبات البردى ، منذ أقدم العصور ، حيث كان يلعب فى الحياة الاقتصادية فى مصر القديمة نفس الدور الذى يلعبه القطن فى مصر الحديثة . وانتشر هذا النبات فى مستنقعات الدلتا ، حيث غطى مساحات واسعة منها ، منذ عهد المملكة المصرية الوسطى ، ولم يختف إلا فى القرن العاشر الميلادى ، حيث كف الناس عن زراعته . وكانت طريقة صناعة ورق البردى فى العهد العربى هى نفس الطريقة التى اتبعها المصريون القدماء ، وذلك باستخراج لب البردى « فيشقونها نصفين من أولها إلى آخرها ، ويقطعونها قطعاً قطعاً ، توضح كل قطعة منها إلى لصق صاحبتها على لوح من خشب ، أملس ، ويأخذون ثمر البشنين ويلزجونه بالماء ، ويضمون تلك اللزوجة على كل قطعة ، ويتركونها حتى تجف جداً ، ويضربونها ضرباً لطيفاً قطعة خشب تشبه الأرزبة صغيرة حتى يستوى من الخشن ، فتصير فى قوام الكاغد » .
أنظر جروهمان ، نفس المرجع : ص ١١ ، حاشية (٢) .

وعثمان بالمدينة ، وخالد بمكة ! ، اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً ، فأرح الناس[١] » . وقال المؤرخ أبو المحاسن : « كان قرة بن شريك من أمراء بنى أمية ، وولاه الوليد مصر ، وكان سيء التدبير ، خبيثاً ، ظالماً ، غشوماً » ثم أمعن هذا المؤرخ فى إلصاق التهم بالوالى قرة بن شريك ، فنسب إليه الفسوق ، وخاصة عندما كان العمال يشتغلون بتوسيع مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط ، فقال : « وكان الصناع إذا انصرفوا من بناء الجامع دعا [قرة] بالخمور والزمور والطبـول ، فيشرب الخمر فى المسجد طول الليـل ، ويقول لنا الليل ، ولهم النهار »[٢] .

غير أن أوراق البردى التى كشفت فى كوم اشقاو تهدم هـذه الاتهامات السالفة الذكر ، وتوضح أن قرة بن شريك لم يكن ظالما ، بل عادلا ، وليس سيء التدبير ، وإنما هو مثال للحاكم القدير ، الحريص على سـير الإدارة سيراً حسناً وسليما . فتبين أوراق البردى عطف قرة على أفراد الشعب صغيراً كان أم كبيراً ، وإشرافه الدقيق على سلوك كبار الموظفين ، ومعاقبة المسيء منهم بأشد ألوان العقاب .

ويبدو أن اشتداد قرة فى إدارته ، وهو الأمر الذى أثار حوله الاتهامات التى رددتها المراجع التاريخية ، يرجع إلى تقلده أعنة الأمور فى مصر ، بعد أن اشتد فيها الفساد على عهد سلفه ، الوالى عبد الله بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد نفسه . فاشتهر الوالى عبد الله بسوء الإدارة ، وشاعت حوله الاتهامات ، وأنه يرتشى ، وينهب الأموال العامة فى مصر ، حيث يجمع الخراج أكثر من مرة ، ويغالط أصحاب الحقوق عند دفعهم للضرائب . وزاد الحالة سوءاً انخفاض النيل على عهد هذا الوالى سنة ٨٧ هـ / ٧٠٦م ، مما ترتب عليه غلاء الأسعار ، وتلاعب التجار

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ .
(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ (ليدن ١٨٥١) ص ٢٤٢ .

بأقوات الناس[1]. ولما كانت الخلافة تضع مصر فى المكانة الأولى من اهتمامها ، فقد استدعى الخليفة الوليـد أخاه عبد الله إلى دمشق سنة ٨٨هـ / ٧٠٧م وأبقاه عنده مدة من الزمن ، يدرس معه أحوال البلاد ، ثم رده إلى ولايته بعد أن رسم له أمثل السبل لإصلاح ما فسد من الأمور .

ولـكن الوالى عبد الله بن عبد الملك عاد إلى سيرته الأولى حين دخل مصر ثانيـة ، حتى ضج الناس ، وكثر فرار أهل القرى من أراضيهم ، والتخلى عن مزارعهم وحقولهم فراراً من الضرائب وازدياد الأعباء الماليـة التى وقعت على كاهلهم . ولذا لم يكن أمام الخليفة الوليد غير عزل أخيه عبد الله عن مصر[2] ، وإسناد ولايتها إلى شخص قدير على رأب الصدع ، والمحافظة على سلامة هـذه البلاد ، التى تعتبر عصب الدولة الأموية والعمود الفقرى لنشـاطها . واختار الخليفة قرة بن شريك الذى دخل مصر[3] سنة ٩٠ هـ / ٧٠٩م » واستهل فيها نشاطه العظيم ، الذى سجلته أوراق البردى .

---

(١) الكندى ، ولاة مصر وقضاتها (طبعة روفن كست — ١٩٠٨) ، ص ٥٨، ٥٩ . وقال فى ذلك : وفى ولايته ، غلت الأسعار بمصر ، فتشاءم به المصريون ،وهى أول شدة رأوها ، وزعموا أنه ارتشى ، وكثروا عليه وسموه مكيساً .

(٢) أبو المحاسن ، نفس المرجع ، ص ٢٣٣ .

(٣) وصف الكندى وصول قرة بن شريك إلى مصر قائلا :

« فأقبل قرة بن شريك على أربع من دواب البريد .... فنزل بباب المسجد،ونزل صاحباه ، فدخل فصلى عند القبلة ، وتحول ، فجلس صاحباه عن يمينه ويساره ، فأتاهم حرس المسجد وكان له شرط يذبون عنه ، فقالوا : إن هـذا مجلس الوالى ، ولكم فى المسجد سعة . قال : وأين الوالى ؟ ، قالوا : فى متنزه . قال فادع خليفته . فانطلق شرطى منهم إلى عبـد الأعلى [خليفة الوالى] فأعلمه . فقال أصحابه : أرسل إليه يأتيك صاغراً . قال : ما بعث إلى إلا وله على سلطان ، اسرجوا ، فركب حتى أتاه ، فسلم ، قال : أنت خليفة الوالى ؟ ، قال : نعم . قال : انطلق فاطبع الدواوين وبيت المال ...

وكتب إلى عبد الملك يعلمه (أى بوجود قرة) ؛ فأتاه الخبر وقد أهديت له جارية ، فبكى، ولبس خفه قبل سراويله دهشاً » .

أنظر الكندى ، ولاة مصر وقضاتها ص ٦٢ ، ٦٣ .

وهنا تبدأ المراسلات التى دارت بين قرة بن شريك و بين بسيل صاحب كوم اشقاو وغيره من العمال ، تشرح اهتمام الوالى بأن يسير رجال إدارته سيراً عادلا وأميناً ، فجاء فى إحدى البرديات رسالة بعث بها قرة إلى عامل له ، يحضه فيها على الأمانة ، فقال : « إنى قد بعثتك حين بعثتك على عملك ، وأنا أرجو أن تكون عندك أمانة . . . وتنفيذاً للعمل ، فكن عند أحسن ظنى بك ، فأنى والله ، لأن تكون محسناً مجملاً أميناً موقراً ، وأحب إلى وأعجب عندى من أن تكون على غير ذلك . لا تميبن نفسك ، ولا تسيئن عملك ، واستعن بالله ، فإنه من ينفذ الإصلاح و يرى الأمانة ، يعنه الله و يصلح له عمله . ثم أقدم على بكل كتاب ترى أنى سائل عنه من عمل أرضك ، والسلام على من اتبع الهدى »(١) .

وتفيض أوراق البردى بعد ذلك فى بيان حرص قرة على أن تأخذ العدالة مجراها ، وأنه فتح بابه لكل صاحب مظلمة ، وأنه كتب إلى عماله بألا يحولوا بينه و بين أى شخص يريد أن يشتكى إليه أمراً من الأمور ، مهما كان صغيراً . ومن ذلك ما تشير إليه البردية التالية ، والتى بعث بها قرة إلى بسيل ليعيد حقاً ضائعاً لصاحبه ، وجاء فيها ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوه ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعد : فإن مرقس بن جريج أخبرنى أنه كان يسأل نبطياً من أهل كورتك ثلاثة وعشرين ديناراً وثلث دينار ، فيزعم أن النبطى مات ، وأنه أخذ ماله نبطى من أهل قريته وغلبه على حقه ، فإذا جاءك كتابى هذا فإن أقام البينة على ما أخبرنى ، فانظر من أخذماله ، فمليه دينه ، ولا يظلمن عبدك ،إلا أن يكون

---

(١) Bell, Translation of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam) II, 282; سيدة كاشف (دكتورة) ، مصر فى فجر الإسلام (١٩٤٧).

شأنه غير ذلك ، فتكتب إلى به ، ولا تكتب إلا بحق ، والسلام على من اتبع الهدى[١] » .

وكذلك عمد قرة إلى معالجة مسائل التموين التى اضطرب شأنها نتيجة ماحدث فى عهد سلفه من انخفاض للنيل وتلاعب التجار بأرزاق الناس . فتشير أوراق البردى إلى عنايته بإعداد شحنات الغلال فى وقت مبكر ، وإلغاء الضرائب التى يدفعها تجار الغلال أيضاً حتى يشجعهم على أداء مهماتهم فى رضى وقناعة . فجاء فى إحدى البرديات التى بعث بها قرة إلى بسيل يطلب منه سرعة إرسال التجار بالغلال إلى الفسطاط ، قائلا له : « فإنى قد وضعت عنهم مكسه ، فليبايعوه بالفسطاط ، وعجل ذلك ، فإنى قد خفت غلاء الطعام بالفسطاط . وإنى إذا وصفت للتجار مكسهم أصابوا ربحاً . وإنما الحصاد إن شاء الله فى أربعين ليلة أو قريب من ذلك . فعجل ما كنت باعثاً به من ذلك ، واكتب إلى كيف فعلت فى ذلك ، وما بأرضك من التجار الذين يبيعون الطعام ، والسلام على من اتبع الهدى[٢] .

وإلى جانب تدبير المؤن فى البلاد . أظهر قرة منتهى الحزم فى إقرار الأوضاع فى القرى[٣] ، وإعادة أهلها الذين هجروها على عهد سلفه . فأنشأ قرة هيئة خاصة

---

(١) Grohmann, op cit, III, 30, 31

(٢) Ibid, , 8, 9

(٣) ويوضح ذلك نص البردية التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوة ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإن هشام بن عمر كتب إلى يذكر جالية (أى هاربين) له بأرضك ، وقد تقدمت إلى العمال ، وكتبت إليهم ألا يؤد جاليا ، فإذا جاءك كتابى هذا فادفع إليه ما كان له بأرضك من جالية ، ولا أعرفن ما رددت رسله أو كتب إلى يشتكيك ، والسلم على من اتبع الهدى » .

أنظر : Grohmann, op cit, 23, 24

لوقف حركة الهجرة من القرى[١] ، ولتعيد كل شخص إلى موضعه ، كما دأب على إرسال مندوبين من قبله إلى مختلف الجهات للتفتيش عن الهاربين ، ويطلب من عماله على المدن والقرى تقديم كل مساعدة ممكنة لهم ، ويحثهم على مراقبة أولئك المندوبين ، حتى لا يقبل فرد منهم أية رشوة ، ثم يهدد بإيقاع أشد ألوان العذاب لكل من تثبت عليه تلك التهمة الشنيعة[٢] .

وإذا انتقلنا من تصوير أوراق البردى لشخصية قرة بن شريك وسياسته الحازمة فى مصر ، نرى أن تلك الأوراق تصورلنا خطوة هامة ، تمت على عهد هذا الوالى ، وهى استقرار الإدارة العربية فى مصر فى القرن الأول الهجرى ، وماصاحب ذلك من تعريب للدواوين وتنظيم لشئونها . فيتضح من أوراق البردى أن العرب اكتفوا فى مصر بشغل المناصب الرئيسية ، حيث جمع الوالى فى يده سلطات واسعة وأن البلاد قسمت إلى أقسام تعرف باسم « الكور » ، وهى تشبه الأقسام التى عرفها البيزنطيون فى مصر باسم « البجارشى » (Pagarchie) ، وأطلق على حاكم كل قسم فى الإدارة العربية اسم « صاحب الكورة » ، وهى تسمية مرادفة للكلمة البيزنطية بجاركوس[٣] . وكانت كوم اشقاو مقراً لحاكم الكورة التى نسبت إليها ، والتى دونتها أوراق البردى باسم « اشقوه » . فكان قرة يراسل باسيل « صاحب اشقوه » ، وهى تسمية عربية حلت محل اسم المقاطعة المعروفة باسم « افروديتى » فى ظل الإدارة البيزنطيـة لمصر . وترك العرب حكام « الكور » من رجال الإدارة القديمة ، مع وضعهم تحت الرقابة الشديدة ، على حين شجعوا رجال الإدارة من الأقباط على تعلم اللغة العربية ، وأتاحوا لهم كافة أسباب الطمأنينة وفرص التقدم .

---

(١) سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) Bell, op cit II, 270, 274, 245;

سيدة كاشف ، نفس المرجع ص ٢٢٨ .

(٣) سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٨ ، ٢٩ — شعيرة (دكتور) ، اختصاصات صاحب الكورة فى القرن الأول الهجرى حسب مجموعة أفرودتو البردية (مجلة كلية الآداب — جامعة اسكندرية — مايو ١٩٤٣) باللغة الفرنسية .

وارتبط بهذا التنظيم الإدارى جانب هام ، كشفت عنه أوراق البردى وهو تعريب الدواوين . والمقصود بذلك ديوان الخراج ، وهو الخاص بالمالية العامة . إذ كانت اللغة المتبعة فى هذا الديوان قبل الفتح العربى هى اليونانية والقبطية ، وظل الحال على ذلك حتى عهد الوالى عبد الله بن عبد الملك ، حيث أمره الخليفة بنقل هذا الديوان إلى العربية[١] . وتوضح لنا أوراق البردى الخطوات التى سار عليها رجال الإدارة فى تنفيذ هذا العمل الهام . إذ أمر قرة بن شريك بأن تكون لغة الديوان المركزى فى الفسطاط هى العربية ، وكذلك المراسلات التى تخرج من هذا الديوان إلى أصحاب الكور وعمالها . وجرت العادة فى هذه المرحلة المبكرة من تعريب الدواوين على أن توضع مع المكاتبات العربية ترجمة لها باليونانية أو القبطية ، حتى تسهل المهمة على العمال الذين لم يجيدوا العربية بعد .

وتزود أوراق البردى الباحثين فى تطور اللغة العربية فى مصر بمادة قيمة ، من حيث طريقة الكتابة ، وكذلك دخول ألفاظ غريبة إلى ميدان تلك اللغة . فاشتملت أوراق البردى العربية على كلمات أجنبية مثل « جسطال » ، وهى محرفة عن اليونانية ، ومعناها الموظف المشرف على مالية الكورة ، وكذلك كلمة « موازيت » ومعناها رؤساء أو مشايخ القرى[٢] . إذ تؤكد هذه الظاهرة اتساع اللغة العربية لقبول مفردات جديدة ، كما توضح صلاحيتها للتطور ومواجهة مطالب الحياة على مر الزمن .

---

(١) الكندى ، ولاة مصر وقضاتها ، ص ٥٨ .

(٢) جاء فى إحدى مراسلات قرة إلى صاحب اشقوة :

« فإذا جاءك كتابى هذا ، فلا أعرفن ما استوفيت من الجزية بعد الذى ترسل ، مما قد جمعت من الجزية ديناراً ولا نصفاً ولا ثلثاً ، إلا ما كان على وزن بيت المال ، ونفذت فى ذلك إلى جسطال كورتك وإلى موازيت القرى » .

أنظر Grohmann, op cit 17 ;

سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٢٩ .

وتشرح أوراق البردى نظام جباية الخراج فى مصر ، وعدالة الإدارة العربية فى تقدير المطلوب من البلاد . ذلك أن العرب وان احتفظوا ببعض عمال الإدارة البيزنطيـة فى مصر ، إلا أنهم تجنبوا المظالم والمساوىء التى اتبعها أولئك العمال فى تقدير الضرائب وجمعها . فأكدت أوراق البردى الحقائق التى أشارت إليها المراجع العربية فى اعتماد الإدارة الجـديدة على أهالى القرى والبلاد فى تنظيم الأموال العامة التى يقدمونها للدولة ، مع مراعاة المصالح الفردية والعامة أيضاً(١). فنرى قرة بن شريك يرسل تعليمات إلى صاحب كورة اشقوه ، يطلب منه أن يجمع رؤساء كل قرية وكبار رجالها ، ليختاروا من بينهم نفراً من المشهود لهم بالذكاء والأمانة ، ليتولوا تقدير الضرائب عن قريتهم . وكان يعد سجل خاص عما يتم عليه اتفاق هذا النفر من علية القوم ، ثم ترسل صورة منه إلى الديوان المركزى بالفسطاط لمراجعتها ، ووضع التقدير النهائى على أساسها . وكان قرة ينذر كل فرد من المشتركين فى هذه العملية بأشد العقاب إذا أهمل أو تسبب فى إلحاق أذى بالناس عند تقدير الضرائب . وتطلب هذا الأمر ذكر محل إقامة كل من اشترك فى تقدير الضرائب ، فى نفس السجل الذى يتم إعداده ، حتى يمكن الرجوع إليه إذا ما اقتضى الأمر ذلك(٢) .

وأظهرت أوراق البردى أن الخراج فى مصر كان يدفع عينـاً ونقداً ، وأن الجزية كانت تدفع نقداً ، مع مراعاة ثروة كل شخص ، حتى لا يضار أحد ، أو يدفع شيئاً أكثر من طاقته . وكانت هذه الجزية تدفع بالدنانير وكسور الدينار

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر (تحقيق عبد المنعم عامر) ، ص ٢٠٦ .
« وكان عمرو بن العـاص لما استوسق له الأمر [بمصر] أقر قبطها على جباية الروم ، وكانت جبايتهم بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وإن قل أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية ومادوتها ورؤساء أهلها ، فيتناظرون فى العمارة والخراب ، حتى إذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى ، فوزعوا ذلك على احتمال القرى ، وسعة المزارع » .
(٢) Bell, op cit, 282 — سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٦٠ .

فدأب قرة على إرسال الأوامر إلى صاحب اشقوة يطلب منه إرسال كشوف بالنواحى التابعة له لمعرفة عـدد الرجال بها ، الواجب عليهم الجزية ، مع بيان ثرواتهم ومصادر دخلهم(١) .

وأوضحت أوراق البردى أيضاً تنظيم قرة بن شريك لديوان الجند ، واهتمامه بأرزاق الجند كذلك . والمعروف أن هذا الوالى يعتبر المنظم(٢) الثالث لهذا الديوان بعد عمرو بن العاص ، وعبد العزيز بن مروان .وكان عطاء الجنـد يتطلب جمع « ضريبة الطعام » ، والتى اشتملت على القمح والزيت والعسل ، وأنواعاً أخرى من الأطعمة . وحرص قرة على جمع هذه الضريبة حتى يطمئن الجند لأرزاقهم ، ويستطيعون بالتـالى القيام بواجباتهم على خير وجـه . وتوضح البردية التالية الحقيقة السالفة الذكر ، إذ جاء فيها .

« بسم الله الرحمن الرحيم

من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوه . فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنك قد علمت الذى كتبت إليك به من جمع المال ، والذى قد حضر من عطاء الجنـد وعيالهم وغزو الناس ، فإذا جاءك كتابى هذا ، فخذ فى جمع المال ، فإن أهل الأرض قد حموا منذ أشهر ، ثم عجل إلى بما اجتمع عندك من المال بالأول فالأول .... فإنه لو قد قدم إلى المال قد أمرت للجند بعطائهم إن شاء الله فلا تـكونن آخر العمال بعثاً بما قبله ، ولا ألومنك فى ذلك ، والسلام على من اتبع الهدى(٣) » .

---

(١) Grohmann, op cit, 48, 49

سيدة كاشف ، نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) الكندى ، نفس المرجع ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٣) Grohmann, op cit, 12,13

واقتضى تنظيم ديوان الجند مراجعة السجلات المدون فيها الأسماء بالنواحى المحلية ، حتى تستطيع الإدارة المركزية بالفسطاط منح الحقوق لأصحابها ، دون أن تضار المالية العامة . ويدل على ذلك البردية التالية ، إذ جاء فيها ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوة .

فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإن أناساً من الجند ذكروا لى كتبة من قريتهم كانت تجرى عليهم منذ أربعين سنة ، ولم نجد شيء من الكتب ، فلا أدرى ما صدق ذلك من كذبه ، فإذا جاءك كتابى هذا ، فلا تقدمن قرية من كورتك إلا سألت أهلها عما فى قريتهم من تلك الكتبة ، ولمن هى ، فإذا علمت ما فى كل قرية منها ، فأرفع إلى كتاب ما وجد من ذلك فى كل قرية وتكتبن لكل رجل كتاباً بما سأله منى(١) » .

وكشفت أوراق البردى عن جانب هام فى الإدارة العربية أيضاً ، وهو وجود « ديوان البريد » فى مصر ، منذ القرن الأول الهجرى ، وأنه كان يؤدى نفس الأغراض التى نهض بها هذا الديوان فى أزهى عصوره . والمعروف أن « ديوان البريد » لم يكن ينقل المراسلات العامة للناس على نحو ماهو متبع اليوم ، وإنما كان هيئة حكومية ، تشرف على المراسلات الرسمية ، كما ينهض رجالها بمراقبة العمال فى شتى النواحى ، أشبه بقلم المخابرات فى الوقت الحاضر . واعتمد قرة على رجال هذا الديوان فى تنظيم أمور ولايته ، وإبعاد الأذى الذى يحاول أى عامل أن ينزله بالناس ، وذلك على نحو ما جاء فى البردية التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوة ، فإنى أحمد الله الذى لا إله

---

(١) Grohmann, op cit, 19, 20

إلا هو ، أما بعد ، فإن القاسم بن سيار صاحب البريد ذكر لى أنك أخذت قرا في أرضك بالذى عليهم من الجزية[١] ، فإذا جاءك كتابى هذا فلا تعترضن أحداً منهم بشىء حتى أحدث إليك فيهم إن شاء الله، والسلام على من اتبع الهدى[٢] » .

وبذلك منع قرة وقوع الغرامة على رعاياه ، وأثبت أنه وال يقظ ، بفضل عامل البريد ، الذى صار يمثل عين الحكومة وأذنها فى شتى النواحى .

على أن أروع جانب كشفت عنه أوراق البردى الخاصة بعهد قرة بن شريك. هو الدور العظيم الذى أسهمت به مصر ، منذ القرن الأول الهجرى فى بناء البحرية العربية والنشاط الحربى الذى قامت به هذه البلاد أيضاً فى الدفاع عن الدولة العربية الفتية . فكانت الأوامر التى بعث بها قرة بن شريك إلى بسيل صاحب اشقوة تطلب منه إرسال البحارة والمقاتلين للعمل فى وحدات الأسطول المصرى الذاهب إلى قاعدة افريقية ، وكذلك إلى قاعدة اللاذقيـة فى المشرق . وذلك فضلاً عن مطالب الأسطول المصرى الرابض فى الميـاه الأقليمية لهذه الولاية . والمعروف أن السفن الحربية المصرية خرجت سنوياً للدفاع عن الشام وشمال أفريقيا ، وأسهمت مع أساطيل تلك الولايات أيضاً لصد خطر الروم وتقليم أظافرهم . وتوضح أوراق البردى انتظام هـذه الحملات ونشاطها ، والدور الجليل الذى قام به رجالها .

وتوضح تلك الأوراق البردية بذلك استعدادات الدولة العربية على عهـد الوليد للقيام بحرب شاملة ضد الدولة البيزنطية ، وتمهيد الطريق أمام الأسطول العربى ، الذى كان على وشك الانطلاق نحو العاصمة البيزنطية . والمعروف أن

---

(١) أى فرضت عليهم غرامة .

(٢) Grohmann, op cit, 28, 29

الوليد توفى دون إتمام هذه المشاريع ، وترك لخليفته سليمان بن عبد الملك أسطولاً عظيماً يسوده التعاون بين وحداته الكبرى فى الشام ومصر وشمال أفريقيا ، وأن هذا الأسطول المتحد اشترك فى حصار القسطنطينية الكبيرة .

وكانت دور الصناعة فى مصر تتلقى من الكور ما يساعدها على بناء السفن ومعدات القتال البحرى ، على نحو ما تفيض به أوراق البردى وما تضمنته من مراسلات قرة بن شريك إلى بسيل صاحب كوم اشقاو . إذ تفيض الأوامر بطلب الأخشاب والمسامير والحبال ، ومهرة الصناع إلى غير ذلك مما تحتاج إليه دور الصناعة فى بابليون (جزيرة الروضة فيما بعد) والأسكندرية ، والقلزم . وتسهب البرديات فى ذكر أجور العمال الفنيين وغير الفنيين ، والمقادير المطلوبة من كل صنف ، مما يشهد بدقة الإدارة العربية على عهد قرة بن شريك .

وأخيراً نرى أوراق البردى توضح الدور العظيم الذى قام به الصناع المصريون فى تعمير الدولة العربية إلى جانب الدفاع عن حياضها . إذ اشتملت المراسلات التى بعث بها قرة بن شريك إلى صاحب اشقوة على طلب عمال يشتغلون فى بناء جامع دمشق وجامع بيت المقدس ، مع دفع أجورهم مقدماً . وجاء فى إحدى البرديات أيضاً أمر من قرة إلى صاحب اشقوة بأن يبعث عدداً من الرجال الفنيين للعمل فى قصر الخليفة بدمشق(١) . والمعروف أن هذا الخليفة كان مغرماً بالبناء ، واستدعى من أجل ذلك مهرة العمال من كل مكان ، حتى من الدولة البيزنطية نفسها . ومن ثم فإن أوراق البردى تشهد بمهارة المصريين فى فن العمارة فى هذا العصر المبكر من تاريخ الدولة العربيـة ، وأن ولاية قرة بن شريك صارت بفضل تلك الوثائق البردية التى اكتشفت فى كوم اشقاو ، مثلا أعلى لما قامت به

---

(١) Bell, Translation of the Greek Papyri (Der Blam) II,274, III, 133, IV, 93,95؛ سيدة كاشف ، نفس المرجع ؛ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

مصر من جليل الخدمات فى ميدان الحضارة العربية الإسلامية ، وإعلاء شأنها .
وفى نفس الوقت أكملت أوراق البردى بعض الصور الباهتة المعالم التى حاولت المراجع العربية رسمها عن الحياة فى مصر ، بشكل أروع وأبهى ، « إذ يقيننا لايوجد مؤرخ مهما كان كثير التعمق فى التفاصيل ، ولاقصصى أوجامع للحكايات أو كاتب يمكنه كشف القناع عن وصف دقائق الحياة فى تلك العصور الخوالى بمثل ما تحدثنا به هذه الأوراق التى أخرجت من أرض مصر . إذا من هنا نتبين الأهمية ، لأنها المعين الصحيح والمصدر الصادق لتاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الزاهية فى العالم الماضى »(١) .

ابراهيم أحمد العدوى

---

(١) جروهمان ، المحاضرة الأولى عن الأوراق البردى ، ص ٩ .